سيمياء الشخصية في قصص السعيد بوطاجين

" الوسواس الخناس أنموذجا "

الأستاذة: نظـيرة الكـنـز

قسم اللغة العربية وآدابها

كليةالآداب والعلوم الإنسانية

جامعة عنابة

1- تمـهـيد نظري :

عرفت الدراسات الأدبية مباحث متميزة جديرة بالاطلاع، ولاشك أنّ المقاربة السميائية من أهمها، إذ تسعى إلى أن تفتق مجمل الأنظمة العلامية التي يبنى عليها النص الإبداعي، وتحاول في الآن نفسه أن تعيد صياغة دواله ومدلولاته من خلال الاهتمام بمستويات الدلالة وطريقة تولد المعاني وإضاءة مستويات النص المختلفة، وباختصار شديد الاهتمام بمكونات الرسالة في حدّ ذاتها.

ويعدّ النص السردي من بين النصوص التي حظيت باهتمام المشتغلين بالحقل السيميائي، ويضم هذا النص مكونات سردية فاعلة تؤدي وظائف متعددة، وتعتبر الشخصية من أهم هذه المكونات فما إن نبدأ في الحديث عن النص حتى نتحدث عن الشخصية لما تضفيه على الأحداث من حركية وسيطرة في الآن نفسه؛ إنّها نبض النص والحركة التي تجري في شرايينه لا نستطيع تجاهلها أو حتى تجاوزها.

لقد خضعت التقاليد الأدبية المرتبطة بالشخصية[1] إلى تحولات عميقة إذ ارتبطت بفلسفات وتوجهات مختلفة فمن الاهتمام بالشخصية كجوهر إلى الاهتمام بها كبنية لغوية مكتفية بذاتها ويمكن في هذا السياق أن نتوقف عند بعض الدارسين الذين قدمّوا آراء متعددة حول هذا العنصر الحكائي وكانت دراساتهم منارات رائدة اهتدى على ضوئها العديد من الباحثين، ولاشك أنّه من بين الأعمال التي اهتمت بدراسة الشخصية وتحديد وظيفتها في السرد ما قام به فلادمير بروب "Vladimir Propp " في كتابه: مورفولوجية الحكاية الخرافية،[2] وترتكز دراسته على التحليل الوظيفي للملامح القارة في الحكايات،

وتنتظم وفق نسق يمثل النموذج الأصلي الذي تعود إليه جميع الحكايات، وقد حصر عدد هذه الوظائف في إحدى وثلاثين وظيفة، ووضع لكل منها مصطلحا خاصا بها جاعلا لكل منها أشكالا مختلفة أو قريبة منها أو متفرعة عنها، وقد حصر الشخصيات الأساسية في: "المعتدي، الواهب، المساعد، الأميرة، البطل، البطل المزيف، الباحث".

لم يهتم بروب بصفات الشخصيات ولا خصائصها الذاتية بل بالأدوار التي تقوم بها باعتبارها عناصر ثابتة غير متغيرة – وهذا هو هدف دراسته – وقد وضع هذا الباحث تقسيمه للشخصيات بناء على ثلاث حالات تندرج ضمن الدور الذي تنهض به الشخصية في النسق العاملي وتأتي على النحو التالي: (3)

- دور تقوم به عدة شخصيات.
- دور تقوم به شخصية واحدة.
- عدة أدوار تقوم به شخصية واحدة.

ورغم ريادة هذا الطرح إلاّ أنه تعرض لجملة من الانتقادات لأنّه أهمل بعض العناصر الفاعلة المرتبطة بالشخصية ولكن مع ذلك اتخذ الدارسون منهج بروب أساسا لدراساتهم مع إجراء بعض التعديلات والإضافات وتبنى مصطلحات أخرى كما فعل أ.ج.غريماس " A.J Greimas"، إذ استند على النتائج التي استخلصها بروب، وقد اقترح وصف وتصنيف الشخصيات ليس بحسب ماهي عليه وإنما بحسب ما تعمله فوضع بناء عل هذا نموذجا عامليا يقوم على ستة عوامل "المرسل، المرسل إليه، الموضوع، الذات، المساعد، المعارض" وتأتلف هذه العوامل في ثلاث علاقات هي: "الرغبة، التواصل والصراع" ومن خلالها نحصل على الصورة الكاملة للنموذج العاملي عند غريماس وقد اعتمد في إبراز هذه العوامل على الجانب الدلالي للشخصية، هذا البعد الذي كان غائبا في آراء بروب ويمكن التمييز في مفهوم الشخصية الحكائـــية عند بروب بين مستويين: (4)

- مستوى عاملي تتخذ فيه الشخصية مفهوما شموليا مجردا يهتم بالأدوار ولا يهتم بالذوات المنجزة لها. مستوى ممثلي (نسبة إلى ممثل) تتخذ فيه الشخصية صورة فرد يقوم بدورما في الحكي، فهو شخص فاعل يشارك مع غيره في تحديد دور عاملي واحد أو عدة أدوار عاملية.

يأتي بعد ذلك فيليب هامون " Philippe Hamon " في كتابه سيمولوجية الشخصيات الروائية - pour un statut sémologique du personnage.- وقد قدّم تصورات رائدة فيه، فمقولة الشخصية عنده ليست مقولة أدبية محضة، هي مؤنسنة بشكل خالص، كما أنها ليست مرتبطة بنسق سيمائي خالص، ويقوم القارئ بإعادة بنائها "ويمكن تحديد الشخصية بأنّها مورفيم فارغ، أي بياض دلالي لا تحيل إلاّ على نفسها، إنها ليست معطى قبليا كليا، فهي تحتاج إلى بناء، بناء تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة، هذا المورفيم الفارغ يظهر من خلال دال لا متواصل ويحيل على مدلول لا متواصل"[5].

فالشخصية من هذا المنطلق علامة لا تكتمل إلاّ لحظة اكتمال النص، ولا تحيل هذه العلامة إلاّ على نفسها، فهي ليست جاهزة سلفا ولكنها تحول إلى دليل ساعة بنائها نصيا، ويتدخل القارئ بإعطاء هذا العنصر فعالية جديدة بما يختزنه من رصيد ثقافي وفكري ولاشك أن إشراك القارئ في تحديد الشخصية يعبر عن وعي فكري جديد حاول أن يعيد الاعتبار لهذا الطرف المشارك في العملية الإبداعية.

لقد تحدث هامون في كتابه عن الشخصية كدال، فهي تتخذ عدّة أسماء وصفات تلخص هويتها، وتحدث عن الشخصية كمدلول باعتبار مجموع ما يقال عنها نصيا أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها و سلوكها وأشار إلى مختلف مستويات وصف الشخصية واعتمد في تصنيفه للشخصيات على معيارين هما:

- معيار الكم و يمثل درجة تواتر المعلومات حول الشخصية .
- معيار الكيف من خلال فعل الشخصية ذاتها وكيفية تقديمها .

وقد حدّد تبعا لهذا ثلاثة أنواع من الشخصيات:"المرجعية، الإشارية والاستذكارية" ويكون بذلك قد صنف الشخصية وفقا لعناصر فاعلة هي :"الذات المبدعة، النص والذات القارئة".

ترتبط الشخصية بعناصر أخرى كالزمان و المكان تسهم هي الأخرى في فتح هذا العنصر على دلالات عدة وتدفع القارئ إلى أن يعيد بناء الشخصية وفقا لوجودها مكانيا وتفاعلها مع الزمان وقد أشار الكثير من الباحثين إلى هذه العلاقة الثلاثية "الشخصية، الزمان والمكان" لما لها من خصوصية في تفجير النص وإعطائه تأويلات متعددة وأنفاس متباينة تضفي على النص مميزات نوعية.

هناك آراء كثيرة حول مفهوم الشخصية ووظائفها ومستوياتها وأنواعها لا يمكن أن نتوقف عندها لأنها كثيرة متعددة فقد حاولنا بكثير من الاختصار أن نتوقف عند محطات ثلاثة أسهمت من خلال ما أنجزته في إعطاء أبعاد جديدة للشخصية، ولا شك أن ما قدّمه هؤلاء – بروب وغريماس وهامون – على مستوى وصف الشخصية وتحديد وظائفها وأنواعها له دوره في إبراز جمالية هذا العنصر الحكائي الذي أضحى مفهوما سيميائيا ووحدة تحيل على مدلول لا متواصل لاتكتمل وظيفته إلاّ باكتمال النص وقبل أن نتوقف عند سمياء الشخصية في قصة " الوسواس الخناس " ومختلف دلالاتها نقدم هذه القراءة للقصة.

2- قراءة في قصة الوسواس الخناس:

تنتمي قصة "الوسواس الخناس" إلى المجموعة القصصية الموسومة بـــ " وفاة الرجل الميت " لصاحبها السعيد بوطاجين، وقد صدرت هذه المجموعة في ماي ألفين وتتصدر قصة "الوسواس الخناس" هذه المجموعة وتختصر في مضمونها العام بعدا أزليا هو صراع الخير والشر قطبا الحياة، وإن كانت القصة تنطلق من حدث يبدو غريبا وطريفا وهو مقتل الشيطان من قبل عبد الوالو، وهذه الحادثة في حدّ ذاتها جعلت مدينة العميان تعيش اضطرابا وفوضى.

فالوسواس الخناس هو مشروع قتل على المستوى المتخيل، وإن لم يحدث فعلا، فإن القارئ يشارك في فعل القتل و يحاول أن يقيم طقوسا جنائزية خاصة جديرة بالشيطان، فاجتماع هذه العلامات: الوسواس الخناس، عبد الوالو، السلطان، مدينة العميان من شأنه صياغة بعضا من الأسئلة الأزلية.

- هل مأساة الإنسان تنتهي بمقتل الشيطان ؟

لقد اختار القاص شخصية مميزة تقوم بفعل القتل "عبد الوالو" وأوكلها في نفس الوقت مهمة إبلاغ الخبر إلى مدينة العميان وما بين لحظة الوصول ولحظة إيصال الخبر يأسر عبد الوالو القارئ داخل عالم خاص تتدفق من خلاله ترسبات عميقة وعبر تداعيات عبد الوالو تتجلى انتكاسات الإنسان وآهاته "تغزوه كل تفاصيل أيامه وهو يسير في أزقة مدينة العميان لتبليغ الخبر العظيم"... افتحوا نوافذكم لرؤية الشمس التي لا تأفل يا بشر، أيها الأحياء وأنصاف الأحياء، يجب أن تدركوا سر مجيئنا لقد قتلناه"[7] فتتحول المدينة إلى بؤرة لكثير من الاضطربات فقدت توازنها فاضطر السلطان إلى أن يقدم حلولا مستعجلة

لضمان استقرارها، فيقرر استيراد شيطان وشيطانة لاستعادة توازن هذه المدينة، ويعلن أنه سيهدي ألف ناقة محملة بالذهب لمن يحضر القاتل عبد الوالو وظلت هذه الرغبة تنمو وتنمو" وما أدركوا يوما أنهم يبحثون عن أنفسهم الهاربة منهم، أما عبد الوالو فيكون قد تنهد وقال في سره: يا ليتني كنت عمودا قرب البحر أو يا ليتني ما كنت."[8]

وعندما يكون شأن الإنسان هكذا، فلا مراجع يمكن أن تضبط ولا مقاييس يمكن أن تصمد، إنها الفوضى، تتداخل كل الأزمنة، بل تغيب في أحايين كثيرة بين تضاريس مدينة أقل ما يقال عنها، إنّها مدينة العميان. إن نص الوسواس الخناس نص غير عادي ويمكن تمييزه في قدرته على إرباك القارئ وادخاله لعبة مقتل الشيطان، إنه نص إضافي متجدد قدّ من مواد كثيرة ورغم الشروخ والتمزقات إلا أنها تلتحم جماليا وتدفع القارئ أن يفتت دواله ومدلولاته المتعددة.

رغم أن النص عار و واضح إلاّ أنه عصّي متمنع، يثير السؤال ويحث على الشك والتفكير في الهامشي والمسكوت عنه، سنقتصر على عنصر يبدو فاعلا هو الشخصية نعيد من خلالها تأسيس هذا النص وسنتوقف عند الشخصيات التالية، الوسواس الخناس، عبد الوالو، السلطان، نحاول أن نستنطق مستوياتها سميائيا.

3- سمياء الشخصية في قصة الوسواس الخناس:

تعد الشخصية عمقا استراتيجيا ومقياسا يؤسس للبنية السردية جماليتها، ويمكن أن تحدد سيميائية الشخصية في قصة الوسواس الخناس من خلال الوقوف عند مستوياتها السطحية والعميقة، وتحليل وظائفها داخل المتن السردي، وكذا علاقتها بالعناصر الحكائية الأخرى، وسنتركز كما أشرنا سابقا على الشخصيات التالية: "الوسواس الخناس، عبد الوالو والسلطان" ونحاول من خلال هذا الثالوث أن نتوقف عند:

أ- مستويات وصف الشخصية " سمياء الأسماء، دلالاتها لغويا ونصيا.

ب- مستوىالبنية السردية: ملفوظات الحالة والتحول ومختلف التحولات الوظيفية للشخصية.

جـ- علاقة الشخصية بالمكان والزمان.

أ- مستويات وصف الشخصية: "سمياء الأسماء ودلالاتها لغويا ونصيا "

الشخصية بياض دلالي وكائن لغوي فضاؤه الورقة، ويتدخل المبدع بشكل كبير في تشكيل شخصياته، إذ يحدد نوعية وعدد الصفات المرتبطة بها، وتتحكم في هذا التشكيل جملة من المرجعيات الفكرية والجمالية والايديولوجية، وفي نص بوطاجين نجد أن الشخصية تحدث المفارقة وترغم القارئ على أن يعيش حضورها وغيابها، دهشتها وسخريتها، وضوحها وضبابيتها، إنها تقوم بفعل ما ولاتقوم به، موصوفة وواضحة ولكنها معتمة حاضرة من خلال الوعي واللاوعي.

لقد عدد المشتغلون في مجال السرديات أربعة مصادر إخبارية يمكن أن تحدد ملامح الشخصية في النص [9].

- ما تخبره الشخصية ذاتها عن ذاتها.
- ما تخبره الشخصية عن أخرى.
- مايخبره السارد.
- ما يجمع من المصادر الثلاثة السابقة.

وفيما يتعلق بشخصيات هذه القصة، فإنها مقدمة من قبل السارد تارة ومن قبل نفسها تارة أخرى، ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن شخصية الوسواس الخناس هي الشخصية المحايدة في هذا النص – إن جاز الوصف – فهي لا تقدم نفسها ولاتظهر إلا من خلال بقية الشخصيات، أمّا عبد الوالو والسلطان فإن الشخصيتين تقدمان من خلال السارد تارة وتقدم نفسها تارة أخرى، ويعد الراوي السارد في هذه القصة شخصية فاعلة كذلك، لأنه يتعب القارئ ويستفزه في معظم الأحيان واصفا الشخصيات السابقة بلغة جريئة وعميقة ويمكن أن نستجمع بعضا من الأوصاف الواردة للشخصيات السابقة في هذا الجدول ونحاول في الآن نفسه أن نحيل إلى مختلف دلالاتها.

الشخصية	الأوصاف	الدلالة
الوسواس الخناس	- لقد قضينا على هيولي الشر. - الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. - له صورة عجوز سوداء بقرنين حادين وذيل طويل ونابين يتدليان على صدرها.	الشر السواد الرذيلة

	- رجل أزرق مربع الشكل ذي أنف دائري وعين واحدة ضاربة إلى الحمرة وعلى خديه الممتلئين تسيح الرذائل	
عبد الوالو	- هيكل عظمي فقد مقر إقامته - وحيدا يغزل في خلاياه الراكضة نحو شواطئ العدم قاموسه ولغته ودينه. - شجرة حافية تبحث عن أرض رؤوف تقيها الجليد والفظاظة. - صرختك كانت تعبر عن بداية موتك عن دخولك المرغم في شبكة المسخ	اللااستقرار العدم المسخ
السلطان	- حفظه الله ونصره وسحق رعيته - واهب الحياة والموت ومانح الخير والبركات وصانع الأمجاد. - وحده السلطان يعرف العلوم والأسرار الأرض سماوية...يعرف ما يفيدك وما يضرك ويعرف كذلك أحوالك الشخصية وتاريخ زوالك. - استيقظ السلطان من غيبوبته ووقف أمام المرآة يتأمل وجهه المشوه.	القوة المعرفة

إذا تأملنا الجدول السابق فإننا نلمح أن الأوصاف في معظمها معنوية ترتبط بجوانب دلالية عميقة تحيل عليها الأسماء باعتبارها كذلك علامات تفتح للشخصية إمكانية الفعل والحركة والتجاوب، ولعل أهم ما يلفت انتباه القارئ في تحديده لهذه الشخصية التسمية لأنّها دالة في معظم الأحيان وقائمة على الاختيار والقصد وعلى إمكانية استشراف البعد الجمالي والدلالي وهذا ما سنحاول أن نشير إليه فيما يخص دلالات أسماء هذه الشخصيات لغويا ونصيا.

1- **الوسواس الخناس:**

هي شخصية فاعلة في المتن السردي، وحاضرة باسم "الشيطان، إبليس"، وإن كانت هذه الشخصية غائبة إلاّ أنها حاضرة من خلال تأثيراتها المختلفة، ولاشك أن اختيار القاص لهذه الشخصية كعنوان للقصة يجعل لهذا الغياب بعدا جماليا يعكسه حضورا على مستوى الفعل والدلالة، وإذا تأملنا هذا الاسم "الوسواس الخناس" في تركيبه اللغوي نجد أنه مكون من كلمتين معرفتين تدلان على صفتين، والتعريف هنا تأكيد لحضور "الشيطان" إضافة إلى هذا فإنّ الكلمتين تتقطعان صوتيا (الوسواس الخناس) وتوحي هذه الحركة الصوتية للكلمتين بحركة على مستوى الفعل والدلالة وإن كان الاسم في معناه العام يدل على الاستخفاء والانقباض وحديث النفس ويوحي بمجموعة من القيم السلبية، إلا أن الاسم نصيا يوحي بقيمتين متناقضتين "اللاتوازن والتوازن"، إذ كان القضاء عليه مصدرا للخير والبشرى "لقد قضينا على هيولى الشر، تعالوا نستقبل أبانا النور" [10] إلاّ أنه يصبح وجوده ضروريا لاستعادة توازن مدينة العميان، لقد اكتسبت هذه الشخصية بعدا أسطوريا وحاول الكل أن يتفنن في رسم صورة مميزة لها.(أنظر الجدول السابق شخصية الوسواس الخناس).
فهو بمثابة الكائن الهلامي الذي لايمكن الإمساك به أو حتى السيطرة عليه لأنّه يؤطر كل شيء ويحتوي كل شيء.

2- **عبد الوالو:**

شخصية متميزة وصانعة للتغيير،أوكل إليها مهمة قتل الشيطان وإيصال الخبر إلى مدينة العميان، وإذا تأملنا هذا الاسم من الناحية اللغوية فإننا نلمح أنه مكون من كلمتين الأولى عربية "عبد" والثانية عامية "الوالو" التي تعني اللاشيء ويبدو أن هذا الاسم يختزل بعدين متناقضين:

العبودية ◄——————— الوالو - اللاشيء

الوجود ◄——————— العدم

وواضح من خلال هذا الاسم المركب تركيبا إضافيا أن العبودية مضافة وتابعة للعدم أواللاشيء وهذا لاشك يوحي بقيمة اللاشيء وسلطته لغويا ففي إضافة الموجود إلى المعدم يتحول هذا الموجود إلى عدم يفقد ماهيته، ولاشك أن فقدان العبودية يلغي معاني الألوهية

وينبئ في الوقت نفسه بغياب قيم نبيلة كالخير والحب والتسامح وقد تجسدت دلالات هذا الاسم على امتداد المتن السردي من خلال سلوكات الشخصية وأفعالها وتداعياتها، فهو يحمل في طياته أطياف بعض الشخصيات الأسطورية والدينية والأدبية، فتارة نراه في صورة بروميتيوس، ويذكرنا في مقام آخر بالمسيح وفي مقام آخر بالدون كيشوت، إنّ الاسم يعكس صورة الإنسان الذي فقد الثقة ويعيش خواءً فكريا وروحيا حشر نفسه في زمرة السكارى والعاقين وأبناء الحرام.

3- **السلطان:**

اسم معرف يدل على صفة تختزل معاني القوة والجبروت وترتبط هذه الشخصية بقيمة سياسية باعتبارها تمثل السلطة الأولى وأخرى اجتماعية تمثل قمة الوجاهة وتظهر من خلال عبارات التعظيم التي تحظى بها على امتداد المتن السردي، وإن كانت الكلمة قديمة تحيل القارئ إلى دلالات قديمة إلاّ أنها تختزل قيم التسلط والتحكم، وهذه الشخصية محاطة بهالة عظيمة تستمد حضورها من خلال وجود مدينة العميان وإذا جمعنا بين السلطان كقيمة وبين المدينة محور التسلط ندرك جليا أن هناك مفارقة عجيبة تخفي الكثير من الدلالات وسنحاول أن نكشف عنها في دراستنا لمجمل الأدوار الوظيفية التي تقوم بها الشخصيات السابقة.

ب- **مستوى البنية السردية:** " ملفوظات الحالة والتحول ومختلف التحولات الوظيفية للشخصية ".

ما توقفنا عنده سابقا من الوقوف عند مستويات وصف الشخصيات ودلالاتها وسميائية الأسماء يعدّ بمثابة الأرضية الخصبة التي تهيئ لنا إمكانية تحديد مختلف التحولات الوظيفية حيث يقوم السرد في هذا المجال بدوره من خلال جملة من الملفوظات المتتالية وهي تؤسس نصيا لمجموعة التصرفات أو الأدوار التي تقوم بإنجازها الشخصيات على مستوى النص، ونلاحظ في هذا المجال أن هناك حركية في الأدوار إذ تتغير من ملفوظ إلى آخر ويمكن أن نلخصها في ثلاث علاقات متعدية: "عبد الوالو الوسواس الخناس، عبد الوالو السلطان، السلطان الوسواس الخناس ".

وإذا رجعنا إلى النص فإن اختبار الكفاءة الأول موضوعه الأساسي قتل الوسواس الخناس ويتبدى ذلك من خلال الجملة الفاتحة في النص "قتلناه وخلصناكم من آثامه"[11]، والذات الفاعلة هنا هي عبد الوالو،أما الموضوع فإنّه مرسل إلى مدينة العميان ويبدو أن المعارض هناهو الملك أما المساعد فهم: السكارى، أبناء الحرام، المشردون.

لذا فإننا نجد أن محور العلاقات في الاختبار الأول كما يلي:

رغبة

- عبد الوالو ← قتل الوسواس الخناس

تواصل

- مدينة العميان ← قتل الوسواس الخناس

صراع

- عبد الوالو ← السلطان

في الاختبار الثاني نلمح تحوّلا وظيفيا آخر يتحول البحث عن عبد الوالو موضوع الرغبة والذات الفاعلة هي حاشية الملك "مدير الخير،الشرطي" ويبقى الموضوع مرسلا إلى مدينة العميان ويعارض هذا المشروع السكارى وأبناء الحرام والخارجين عن القانون ونكون في هذا الاختبار الثاني إزاء علاقات جديدة نوضحها كما يلي:

صراع

- السلطان ← عبد الوالو

تواصل

- مدينة العميان ← إحضار عبد الوالو

رغبة

- السكارى وأبناء الحرام ← عبد الوالو

أما في الاختبار الأخير فإننا إزاء موضوع جوهري هو إحضار شيطان و شيطانة ويبدو أن المرسل إليه هي المدينة أما المعارض فهو عبد الوالو ويمكن أن نختصر هذه العلاقات كما يلي:

السلطان ← (رغبة) إحضار شيطان وشيطانة

مدينة العميان ← (تواصل) إحضار شيطان وشيطانة

عبد الوالو ← (صراع) إحضار شيطان وشيطانة

ويمكن أن نوضح مختلف التحولات الوظيفية السابقة من خلال هذه الترسيمات:

1 - **الموقف الافتتاحي: الاختبار الأول:**

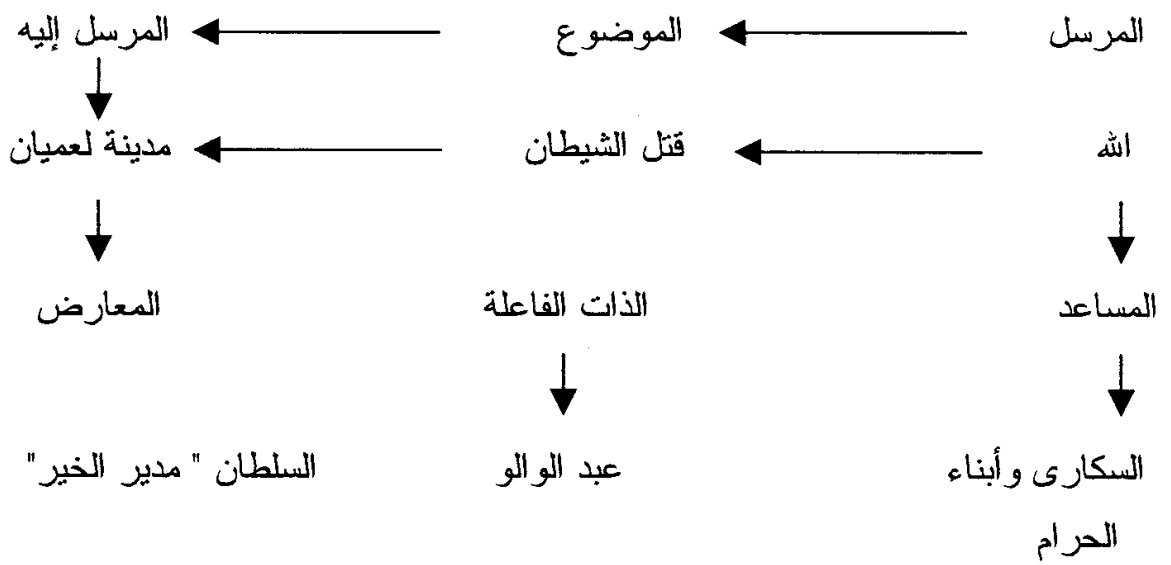

2- **الموقف الوسيط: الاختبار الثاني:**

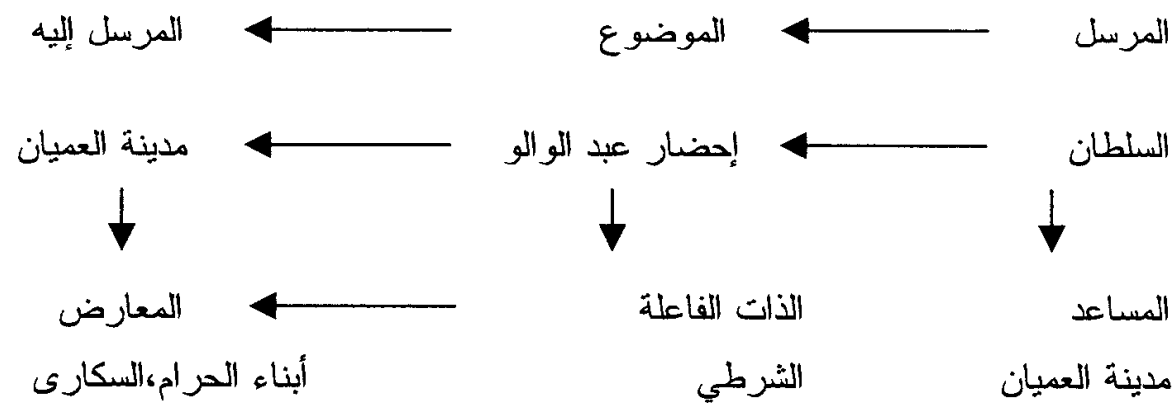

3- **الموقف الختامي: الاختبار الأخير:**

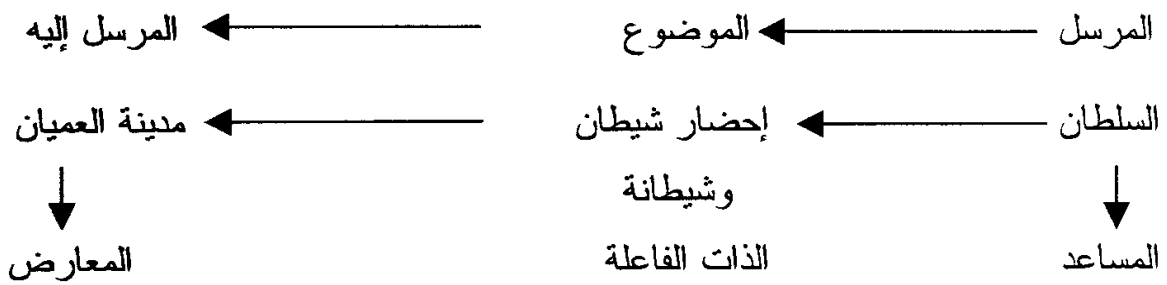

سكان مدينة العميان	مدير الخير الشرطي	عبد الوالو

استنادا إلى الترسيمات السابقة يبقى الموضوع المهيمن هو الوسواس الخناس من خلال فعل القتل أو الإحضار ويشكل هذا الموضوع في حد ذاته بؤرة الحدث ويمتلك وفقا لمختلف العلاقات التشابكية دلالات يغلب على معظمها التناقض فهو يمثل "التوازن / اللاتوازن، الخير / الشر، الوجود / العدم"، ولايمتلك هذا الموضوع مشروعيته ومختلف تحولاته إلاّ باقترانه بشخصية عبد الوالو، وإذا أردنا أن نتعمق أكثر في دلالة هذه التحولات فإننا نصل إلى خلاصة مفادها أن هناك انفصالا بين عبد الوالو والوسواس الخناس والسلطان باعتبارهما يمثلان الشر وفي مستوى أعمق فإن هناك تقاربا بين السلطان والشيطان على المستوى اللفظي والدلالي وهما يرمزان إلى الجبروت والعنف والقهر بمستوياته المختلفة، أما بالنسبة لعلاقة السلطان بالشيطان فهي حميمية باعتباره مصدر القوة والتوازن لذلك فإنه لايكتفي بشيطان بل يدعمه بشيطانة كي يتناسل الشر ويتضاعف، أما بالنسبة إلى المدينة فإنها كما وصفها السارد مدينة عميان فقدت البصر والبصيرة وهي مدينة يوتوبية فسيفساؤها منتقاة من مدن عمها الخراب ولم تعرف إلاّ الكوابيس والسعال "مدينة شامخة كآلهة يثرب تنفض عنها الخمول بالفاتحة وتعيش بالفاتحة وترقد بآية الكرسي،رأسها في الوحل وفمها ذو الشفاه الكثيرة يتسلى بالأناشيد الرثة "[12]

جـ - علاقة الشخصية بالمكان والزمان:

يعدّ المكان والزمان عنصرين أساسين في بناء القصة، إذ من خلالهما تتحرك الشخصية وتكتسب مشروعيتها ومختلف إيحاءاتها ومن خلال تلاحم هذه العناصر الثلاثة "الشخصية والمكان والزمان" يمكن أن نتحدث عن نص قصصي، وسوف نحاول أن نتوقف باختصار عند العلاقة بين الشخصية والمكان من جهة والشخصية والزمان لنبين من خلال هذه العلاقة المزدوجة كيف تتولد الدلالات وتتحرك الشخصيات لتقوم بمختلف أدوارها الوظيفية.

يشير هذا النص القصصي إلى جملة من الأمكنة إلاّ أننا سوف نقتصر على مكانين هما: مدينة العميان والبحر وجلّي أن المكان الأول يجمع بين الشخصيات السابقة لذا فإن المدينة يخيم عليها العماء والفوضى فهذه المدينة تحوي "الوسواس الخناس والسلطان" ولكنها ترفض احتواء "عبد الوالو" ويحس فيها بالقهر والاستيلاب "ومع الزمن تضخمت كراهيته لمدينة العميان" [13]، وقد أتاح السارد لهذا المكان بأن ينطق بما هو سري وهو مكان شبه أسطوري تجتمع فيه كل المتناقضات وقد هيأ اسم هذه المدينة القارئ لأن يتوقع هذه المدينة التي تختلف كثيرا عن مدن سمع عنها فبدل أن يجد نفسه أمام المدينة الفاضلة إلاّ أنه يصطدم بالصفة العميان والعمى هنا عمى معنوي (عمى البصيرة)، فسكانها يعيشون اضطهادا وابتذالا أليس واقع هذه المدينة شديد الوطأة فاتكا هاتكا إنها تعيش بالفاتحة " قال عبد الوالو لأصدقائه هذا النعش الفسيح يسمى مدينة "[14].

فهي بالنسبة إلى:عبد الوالو ← العدم

السلطان ← القوة

الوسواس الخناس ← الوجود

وإذا كانت علاقة عبد الوالو بمدينة عميان علاقة انفصال فإنه حاول أن يجد مكانا آخر من خلاله يتطهر فيه من دنس هذه المدينة "مع البحر والصخر أقام علاقاته، هناك صام وشكر وصلى..."[15] .

فانفتاح هذا المكان على الحرية والتجدد والطهارة مكّنه من أن يكون مكان الوجود الحقيقي برماله وأمواجه، ومن أن يكون المقام الذي يبوح فيه عبد الوالو بكل أسراره.

وإذا انتقلنا إلى علاقة الزمن بالشخصية، نجد أن الحركة الزمنية في هذه القصة لولبية تخلط بين الماضي والحاضر ويغيب فيها المستقبل، وفي معظم الأحوال فإن تداعيات عبد الوالو وهواجسه تكسر هذا الزمن حدّ إلغائه وإلى حدّ اقتناع هذه الشخصية بعدميته "ومع الأيام رأى الوقت يتساقط قدام عينه وأبصر عمره يسبح في مستنقعات التنظير وعلم الكلام... بقيت الذاكرة وحدها تحصي عدد النهارات التي لا لون لها..." (16) .

فمعظم اللحظات التي يتذكرها عبد الوالو تعزز فكرة اللازمن، خاصة وأن المدينة مدينة عميان ينتشر فيها الكسل والوباء والتراخي ويسيطر عليها السلطان أو الشيطان، فكل هذه العلامات من شأنها أن تجعل هذه الشخصية تعيش غربة زمانية ومكانية في الوقت ذاته، فهذا الجو العجائبي المملوء بالفجيعة يجسد تجربة الوجود بأقطابه الثلاثة "ماض، حاضر، مستقبل" ويرسم عملية توالدها صعودا ونزولا في بنية جدلية نتجت عنها سخرية سوداء من كل ما حدث ماضيا وما يحدث حاضرا وما قد يحدث مستقبلا.

الخاتمة:

ما يمكن أن نخلص إليه من دراستنا لسمياء الشخصية في قصة الوسواس الخناس هو عمق دلالة الشخصية وانفتاحها وانحرافها، فشخصيات بوطاجين ونقصد هنا "عبد الوالو" تتكلم بكامل عنفها وصخبها ولحظة تنتهي من كلامها ومجمل أدوارها الوظيفية يتبدى للقارئ وكأنها كانت تهذي أو تحلم فهي تعانق أطياف الهذيان، وتحاول أن تفتت مخزون القارئ الفكري والأسطوري، فيعيد عمارة وبناء هذه الشخصيات وفقا لتضاريس جديدة، مليئة بالمتناقضات والانحرافات "كل مخلوق يمثل لوحة من لوحات الله الخارقة، منها يكتسب الرحمان قيمته وكبريائه، وكلما ألغي إنسان أو أهين ظلما شوهت لوحة متميزة..."(17).

الهوامش

1) حول الشخصية أنظر ما يلي:

- فيليب هامون: سميولوجية الشخصيات الروائية ترجمة سعيد بن كراد.
- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي.وكذا -حميد الحمداني: بنية النص السردي.

2) Vladimir prop, Morphologie du conte traduction De Marguerite Derrida , Tzvitane todorov et claude KAHN paris, le seuil, 1970.

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ابراهيم الخطيب وتحمل الترجمة عنوان مورفولوجية الخرافة، نشر الشركة المغربية للناشرين المتحدين 1986، الدار البيضاء، المغرب.

3) حسن بحراوي،بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط1،1990، ص 266.

4) لحمداني حميد، بنية النص السردي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ط1،1991 ص 52

5) هامون فيليب، سميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكلام،الرباط،1990،ص 09.

6) سعيد بوطاجين، وفاة الرجل الميت، نشر كتاب رابطة الاختلاف، دار هومة، ماي 2000.

7) الوسواس الخناس، ص 10.

8) المصدر السابق، ص 46.

9) المصدر السابق، ص 09.

10) لحمداني حميد، بنية النص السردي، ص 51.

11) الوسواس الخناس، ص 07.

12) المصدر السابق، ص 08.

13) المصدر السابق، ص 20.

14) المصدر السابق، ص 08.

15) المصدر السابق، ص 20.

16) المصدر السابق، ص 18.

17) المصدر السابق، ص 32.